هل لقصيدة الهايكو مستقبل في الثقافة العربية؟

هناك جانبان لأي شكل أدبي: جانب لغوي وثقافي يرتبط باللغة التي نشأ فيها وما تفترضه من ثقافة خاصة بأهل هذه اللغة، وهو جانب غير قابل للنقل. وجانب بنائي صِرف يتم تجريده من عوالقه الثقافية واللغوية ويمكن استزراعه في الثقافة المنقول إليها هذا الشكل.

وعندما انتقل الهايكو من اليابان إلى الثقافات الغربية مثلا، لم يلتزم الشعراء بإطاره اللغوي ولا الثقافي وإنما حاولوا أن يستوعبوا روحه ويكتبوا من خلالها قصائد هايكو بتلك اللغات. ويسري الأمر علينا نحن العرب، فلدينا الومضة الشعرية التي هي أقرب الأشكال لقصيدة الهايكو لدينا، ولدينا كذلك القصيدة الصوفية وكذلك أبيات متناثرة هنا وهناك في مسيرة الشعر العربي منذ بداياته حتى الآن يمكننا أن نجد فيها اقتران صورتين أو صورة تستدعي صورة أخرى غير حاضرة.

وفكرة الومضة أو الهايكو وربما الأشكال الأدبية عموما تتمثل من وجهة نظري – وإن كان في سياق آخر – في آيتين من القرآن الكريم: الآية الأولى هي الآية الورادة في قصة سيدنا موسى على لسان السامريّ: "قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ **قَبْضَةً مِّنْ** أَثَرِ الرَّسُولِ" (طه، 96). الإبصار يقترن هنا بالبصيرة، كما يقترن أثر الرسول بتحويل مسار دلالة الرسول ووظيفته ودوره من مسار التوحيد إلى مسار الشرك. وهناك ذات مبصرة هي التي تربط بين شيئين غير مترابطين في السياق الخارجي ولكنهما ترابطا في ذهن السامري. بالطبع لا أوافق على ما قام به السامري من الوجهة الدينية، ولكني أستخدم هذا السياق لتقريب تصوير قصيدة الهايكو لذهن القارئ. فهناك ذات مبصرة تتمثل في الشاعر، وهناك صورتان ربما لا يوجد ارتباط مباشر أو مجاني بينهما ولكنهما ترتبطان في مخيّلة الشاعر – وأؤكد على استعمال كلمة المخيّيلة بدلا من الذهن

– ويقدم لنا الشاعر قصيدة الهايكو التي تجمع بين الصورتين جمعا يشكل منهما صورة ثالثة هي قصيدة الهايكو ذاتها.

أما الآية الثانية، فهي: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ **قُلُوبٌ** يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (الحج 46). فالقلوب هنا أهم من الأبصار، حاسة القلب التي تخلط معطيات جميع الحواس وتخرج من هذا الخلط بالدلالة غير المرئية لهذه الدلالات، أو بالأحرى بالدلالة التي تعجز الحواس عن الإمساك بها، والقلب هنا هو الذي يستطيع الربط بين الصورتين اللتين تجتمعان في الهايكو. فالقلوب هنا مجمع التعقُّل والتفكير خارج صندوق الحواس المباشرة. فالحواس متاحة للجميع في الغالب، ولكن الجميع لا يستطيعون معالجة معطيات هذه الحواس بنفس الطريقة، فهناك قلوب تتعامل مع هذه المعطيات تعاملا نفعيا مباشرا لا يرى فيها شيئا سوى الفائدة المباشرة التي قد تعود عليهم من هذه الحواس ومعطياتها. وهناك قلوب تستطيع أن تنعم

بالفائدة المباشرة وتستولد منها فوائد غير مباشرة أيضا. أي أن هناك قلوب تتعامل مع معطيات الحواس بنفس الطريقة التي تتعامل الحواس بها مع هذه المعطيات، وهناك قلوب وصلت إلى رهافة خاصة تمكنها من الجمع بين معطيين من معطيات الحواس لا يجتمعان في العادة أو في الجمع بين معطى من معطيات الحواس ومعطى آخر غائب ليست له علاقة بالحواس ولا معطياتها ساعة الربط أو الجمع. أو حتى تجمع بين معطيين أو صورتين لا تتجسدان أمام الناظر أو الملاحظ أو المتأمل، وإنما يستحضرهما من مخزون الذاكرة أو فيضان اللاوعي.

ومن هنا يمكننا أن نقول إن الجمع بين صورتين في حد ذاتهما ليس ذا قيمة في حد ذاته، فلابد أن تمر الصورتان على القلب الذي يعقل العلاقة بينهما ويؤلّف أو يولّف بينهما بطريقته الخاصة التي تجعل حياتهما معا حياة ضرورية وفنية صالحة للبقاء على مر الزمن. ولذلك أجد أن ما يقوم به الكثيرون من الشعراء العرب من وصف صورة بطريقة

مدهشة أو جديدة ثم المجيء بالموصوف في السطر الثالث من القصيدة لا يمثل روح الهايكو، ولا يمكن لهذا النوع من الكتابة أن يصمد على مر الزمن، فروح الهايكو تتمثل في استحضار صورة في السطر الأول ثم إقرانها بصورة أخرى أو صورتين أخرتين في السطرين التاليين بطريقة تجعل القارئ الذي يتأمل الصور يدرك الرابط الفني والروحي بينهما.

باختصار، قصيدة الهايكو تحتاج أن تنبت في تربة عربية وتلبي حاجة فنية ملحة في الثقافة العربية. ومجرد اكتفائها بالتقليد الشكلي لا يفيد الثقافة العربية ولا الأدب العربي في شيء. كل لغة لها خصوصيتها ولها ثقافتها. ومن هنا لا يهم التركيب البنائي المقطعي الذي تتخذه الهايكو في الثقافة اليابانية، فللغة العربية طريقة تعبيرها الشعري التي تختلف عن اللغات الأخرى، وكل لغة بوجه عام لها طريقة خاصة في التعبير الشعري. ولذلك يمثل الجانب اللغوي السطحي مجرد قشرة تتم إزالتها عندما ينتقل الشكل الشعري

من ثقافة لأخرى. وهنا يكون روح التجربة هو القاسم المشترك بين اللغات والثقافات، وليس مظهرها الخارجي الذي يُعتبر أول عنصر قابلا للمحو عند الانتقال من ثقافة لأخرى. روح التجربة الشعرية في قصيدة الهايكو هو المهم، فقصيدة الهايكو في أصلها مزج بين صورتين أو حالتين تنتج منهما حالة ثالثة لا إلى هؤلاء ولا إلى هلؤلاء، لكن معظم الكتاب العرب يرون فيها وصفا مدهشا بدون رؤية فنية، وأنا شخصيا أرى أن أي وصف لا يقرّبنا من روح الإنسان ليست له قيمة، كما أن البهرجة اللغوية والوصفية في حد ذاتها مجرد بهرجة بدون إطار فني ورؤيوي.

الهايكو حالتنان قد تكونان بعيدتين عن بعضهما ظاهريا، ولكن وعي الكاتب يربط بينهما ولسبب شخصي في الغالب، ولكن بشكل يجعلنا نستشف الرباط بينهما.

حتى لو كانت بدايات الهايكو اقترنت بمواسم الطبيعة وفصول السنة، فكان هذا الاقتران يظهر في شق واحد من الهايكو والشق الثاني خاص بحالة مغايرة يستدعيها عنصر

الطبيعة في ذهن الشاعر. وعنصر الطبيعة ذاته قد لا يكون حاضرا أمام الشاعر، فقد يستدعيه هو الآخر من الذاكرة.

أن تصف شيئا ثم تذكر اسم الموصوف في السطر الثالث من "القصيدة" لا يعني أنك كتبت قصيدة هايكو، لأنك اكتفيت بطرف واحد أو حالة واحدة ولم تذكر الطرف الآخر أو الحالة الأخرى ومدى الصلة بينهما.

لا يتمثل الهايكو في أن تتكلم عن شيء بلغة شيء آخر، فهذا مجرد استعارة أو مجاز أو رمز أو كناية أو... فلابد أن يتقاسم الشيئان روحا واحدة في وعي الشاعر، أي أن هناك علاقة نفسية أو عضوية أو روحية أو وجدانية أو فكرية أو... بينهما.

هل الهايكو إعادة وصف لكلمة أو عبارة أو فكرة بطريقة تعبيرية جديدة وكأن القصيدة مجرد بهرجة لغوية؟ أم أن الهايكو التقاط لروابط بين ظواهر كونية أو إنسانية أو اجتماعية أو... لا يلتقطها الملاحظ العادي؟ الهايكو فن لا

يتقنه إلا ذوو البصائر والتأملات والقلوب التي تعقل وتستطيع أن تخترق الحجب. الرحمة حلوة

المشهدية في الهايكو قد تكون غير مادية، بمعنى أن الصورة لا تكون مسمتدة من الطبيعة المادية التي نعرفها، وإنما قد تكون مستمدة من المشهد والصورة كما نعرفهما في الأدب، سواء أكانا ماديين أم مجازيين أم مسمدين من تركيب مشهدين من حياتنا أيا كانت طبيعة المشهدين. الاتكاء على وصف مشاهد الطبيعة فقط في الهايكو العربي سيجعله مجرد وصف بلا إطار فني وسيجعل إمكاناته محدودة جدا وستستنفد أغراضها في وقت قصير جدا. الهايكو فن، ويمكنه أن يستغل الوصف والتصوير بثرائهما وانفتاحهما على مختَلَف التجارب الإنسانية المرئية وغير المرئية، الملموسة وغير الملموسة، الفيريقية والميتافيزيقية. الهايكو ليس استسهالا، فهو ينم عن كاتب له بصيرة تستطيع أن تلتقط ما لا يلتقطه الملاحظ أو المشاهد العادي. الهايكو توغل في روح الكون والإنسان. إذا لم يتم صب الوصف والتصوير في

الهايكو في رؤية إنسانية تجعل نتلمس ذاتنا الإنسانية وتشابكها مع كل مظاهر الحياة، فلا داعي لكتابة قصيدة الهايكو. الوصف لمجرد الوصف ليس فنا ولا يمكنه أن يكون فنا.